البيت المهجور

إبراهيم السمري

في إحدى الإجازات الصيفية قررت أن أبحث عن عمل أستطيع من خلاله توفير مصروفات الجامعة، ذهبت إلى مدينة بعيدة عن مدينتنا كيلا يراني أحد من زملائي، طفت على المحال التجارية والمطاعم والمصانع الصغيرة حتى قبلني أحدهم، وعندما علم بأني من محافظة أخرى اشترط عليّ المبيت بالقرب من العمل ..أخذت أفكر في الأمر لأني ليس بمقدرتي تأجير مسكن، ولما رأى الحيرة ترتسم على وجهي أخبرني بأن لديه مسكنا في مخزن البضائع.

رحبت بالفكرة وبدأت عملي في العاشرة صباحاً تقريباً، كان العمل شاقاً بالنسبة لطالب جامعي لم يحمل في يده قبل اليوم سوى قلم أو كتاب، لكنني قررت مواجهة الصعاب، والتحلي بالصبر.

كانت الشمس في يوليو ترمي حممها المستعرة، والهواء الساخن يكتم الأنفاس، ويلفح الوجوه في غضب كظيم، نهار الصيف طويل فمتى يأتي الليل ليرحمني من هذا العذاب المتصل..وأخيراً جاء الغروب

على مهل كشيخ هرم يقدم خطوة إلى الأمام فتتعثر قدماه فيرجع إلى الخلف خطوتين.. تنفست الصعداء بعد أن سمعت أذان العشاء.

ناداني صاحب العمل وكان رجلاً وقوراً هادئاً، وضع في كفي مبلغاً من المال وطلب مني أن أشتري عشاء لنفسي، وأرسل معي أحد أبنائه ليدلني على مكان السكن الذي سأبيت فيه.

في الطريق إلى المسكن أخبرني الابن بأنه يتوجّب عليّ أن أشتري عشائي قبل الذهاب إلى المخزن؛ إذ إن والده طلب منه أن يغلق بوابة المخزن من الخارج بعد أن يوصلني إلى مسكني، أذعنت للأمر واشتريت عشائي وأنا لازلت بملابسي المتسخة، ذهبنا سويًّا إلى البيت.

أخذتني رجفة عندما رأيت البيت الذي يبدو مهجوراً من عشرات السنين، البيت كبير لكنه بعيد عن الشوارع الرئيسية وحركة المارة التي تشعرك بالأنس والأمان، مكون من ست غرف واسعة ، خمس منها اتخذت كمخازن للحبوب المتنوعة ، وأخرى وضع بها سرير شبابي بمرتبة من الإسفنج فرشت فوقها ملاءة لا يعرف لونها، قيل له بأنها كانت بيضاء، غرفة السكن والحمام الذي يجاورها يبدوان منعزلين

عن بقية الغرف فهما يقعان في الجهة الغربية للبيت تؤدي إليهما طرقة طويلة تمتد إلى عشرة أمتار تقريباً كأنها قبو قصر عتيق.

بابتسامة عريضة مصطنعة تظهر علامات الرضا ودّعت ابن صاحب العمل بعد أن دعوته لتناول وجبة العشاء معي لكنه رفض وتعلل بأنه ذاهب للسهر مع بعض أصدقائه.. خرج وأغلق البوابة الخارجية وراءه وأخبرني بأنه سيأتي في الصباح ليفتح لي كي يصطحبني إلى مكان العمل.

أسرعت إلى الحمام لأحصل على دش ماء بارد أتخلص به من رائحة العرق العالقة ببدني، وليمنحني إحساساً بالراحة بعد هذا اليوم العصيب، تناولت بعدها وجبة العشاء ، تلفت يمينا ويساراً أبحث عن تلفاز أو راديو أو أي وسيلة للتسلية فلم أجد شيئًا هنالك أحسست بالغربة والوحشة، لكنني سرعان ما أقنعت نفسي بأن هذا في مصلحتي كي أنام مبكرا لأستطيع التواصل مع هذا العمل الشاق والجديد على حياتي السابقة.

جو الغرفة الخانق والحرارة المحتبسة والمتسربة من السقف والجدران مضافاً إليهما حرارة الإسفنج تجعلك في جحيم تتلظى بناره الملتهبة، وتطرد عن عينيك أي نوم هانئ يقترب من ساحتها.

أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل ومازالت عيناي معلقتين بسقف الغرفة.. شعرت بدبيب أقدام بشرية فوق السطح ، اعتدلت في جلستي على السرير ورحت أرهف السمع من جديد ، وهنا انهالت الأسئلة على رأسي كأنها سيل لا ينقطع:

ـ تُرى أيكون لصاً جاء لسرقة البضائع من المخزن؟ يا لحظي التعس..!! لماذا اختار هذا اليوم وهو أول يوم لي في العمل؟! لابد أن صاحب العمل سيظن بأني شريك لهذا اللص، وأن بحثي عن عمل لم يكن إلا خطة للوصول إلى هذا المكان، ما العمل يا ربي؟! لابد أن أدافع عن المخزن بكل ما أوتيت من قوة ، لكني لا أملك شيئًا أدافع به عن نفسي، ألم يخطر ببال صاحب العمل أن يتعرض العامل للسرقة؟! لماذا لم يتركوا لي أو غيري وسيلة ندافع بها عن أنفسنا وعن بضائعهم؟! أيجدر بي أن أصرخ مثل النساء فأنا لا أملك الآن سوى

صوتي؟! حتى لو صرخت لا أعتقد أن أحداً هنا سيسمعني، لقد ألقوا بي في غيابة جب ليس له قرار.. ما العمل إذن؟ .. لابد من حيلة!!

نزلت أسفل السرير أبحث عن أي وسيلة للدفاع، عثرت بعد جهد على مفتاح إنجليزي يستخدم في أعمال السباكة، ذهب عني بعض الخوف بعد أن حصلت على بغيتي وبعد أن توقف الدبيب فوق السطح.. أطفأت مصباح الغرفة وحاولت أن أخلد إلى النوم لكن دون جدوى ، لست أدري أهو الخوف الذي يطرد النوم عني أم تغيير موضع نومي؟!

من جديد بدأت أسمع وقع خطوات لكنها الآن في الطرقة المؤدية إلى الغرفة تأكدت من إغلاق مزلاج باب الغرفة ، ثم أضأت نور الغرفة فجأة لأرسل رسالة إلى اللص عبر الشرفة الزجاجية في الباب بأن في الغرفة من يحرس البيت، توقفت الحركة خارج الغرفة وعادت الأنفاس المحبوسة في رئتي إلى حريتها من جديد.

هدأ المكان تماماً من الحركة أحسست ببعض الأمان وما هي إلا دقائق معدودة حتى سمعت صوت مياه الصنبور في الحمام كأن أحدًا

فتح الصنبور على آخره، قلت في نفسي لعل اللص يستدرجني للخروج من الغرفة ليفاجئني بضربة غير متوقعة ، فكرت كثيراً قبل الخروج لكني أمام الشلال المتدفق من المياه قررت الخروج قبل أن يغرق البيت وتغرق الحبوب معه، تحلّيت بالشجاعة وأمسكت بالمفتاح الإنجليزي في يدي اليمنى آخذا وضع الاستعداد لمواجهته بضربة مباغتة، فتحت باب الغرفة في هدوء وتسللت على أطراف أصابعي حتى وصلت إلى الحمام فوجدت الصنبور مغلقاً، أغلقت المحبس المؤدي إليه جيداً وعدت إلى غرفتي.

سمعت أنيناً يصدر من آخر الطرقة، ثم صوت سيارة تدخل إلى المخزن أعقبه صوت مكابح السيارة تصرخ ثم ترتطم بحائط ، حينئذٍ شعرت بتنميل في جلد رأسي، إن ما يحدث الليلة ليس بأمر طبيعي ، جذبت السرير خلف باب الغرفة ووضعت فوقه كرسياً عتيقاً وجلست على طرفه الخلفي في حذر..!

أيقنت بأنني كنت مخطئاً عندما تمنيت أن يأتي الليل بسرعة لم أكن أعلم أنه سيكون أشد وطأ وأكثر إرهاقاً.. عادت الأصوات

تتسلل إلى أذني في صمت الليل الرهيب صوت أحمال تنقل وتوضع فوق سيارة ، عدت إلى ظني الأول لعلهم لصوص استطاعوا فتح البوابة ودخلوا بسيارتهم لنقل البضائع بعد أن تأكدوا بأنني لذت بالغرفة هلعا وخوفا.

فتحت باب الغرفة وتسللت عبر الطرقة إلى أن وصلت إلى الدهليز المؤدي إلى المخازن قررت أن أتسلل في خفاء وأخرج إلى الشارع لأذهب إلى صاحب العمل وأخبره قبل أن ينتهوا من أعمالهم ، وصلت إلى البوابة الخارجية دون أن يلحظني أحدهم لكنني وجدت البوابة مغلقة، قررت أن أحدث ضجيجا بالمكان لعل أحد المارة يسمعني، جعلت أقرع البوابة بالمفتاح الإنجليزي وأصرخ بأعلى صوتي، وصل شاب وسيم إلى البوابة طلبت منه أن يذهب إلى صاحب المخزن؛ لأنه يتعرض للسرقة، لم يأبه لكلامي واستطاع أن يمر من البوابة ودلف إلى الداخل، مضى أمامي نحو المخزن في صمت وأنا خلفه أقص عليه ما حدث لكن شيئاً ما استوقفني.. هذا الشاب غريب الأطوار سوالفه العريضة وياقة قميصة العريضة أيضا وبنطاله المتسع

عند القدم ، هذه الملابس كانت منتشرة في السبعينات من القرن الماضي وقف أمامي في خشوع لا ينطق بكلمة، انقطع التيار الكهربائي فجأة وجدتني أتشبث به من الخوف ..تمزّق قميصه من الخلف في يدي، فرأيت في ضوء القمر المتسلل عبر الدهليز أخاديد في ظهره تتفجر منها الدماء فرجعت إلى الخلف فزعاً ، وسألته:

ـ ما هذا الذي أرى؟!

استدار نحوي في صمت وفجأة سقطت رأسه على الأرض أسرعت نحو البوابة الخارجية ولازال جسده يتبعني بلا رأس، جذبت البوابة بعنف، لكنها لازالت مغلقة صرخت صرخة مدوية، ثم سقطت على الأرض..

انتبهت على صوت تلفاز يصل إلى مسامعي من غرفة مجاورة ، دققت النظر فيما حولي وجدتني في غرفة واسعة منظمة ومرتبة مختلفة تماماً عن الغرفة التي كنت فيها بالأمس تحسست رأسي ووجهي فشعرت ببعض الآلام نظرت في مرأة أمامي فوجدت بعض الكدمات بهما، فأيقنت بأنه لم يكن كابوساً بل حقيقة..!

قرع صاحب الغرفة الباب واستأذن في الدخول فوجدته ابن صاحب العمل اعتدلت في حياء وخجل وسألته:

ـ أين أنا الآن؟ ومنذ متى وأنا هنا؟!

أجاب بابتسامة :

ـ لا تقلق يا صديقي أنت الآن في غرفتي منذ الخامسة صباحاً، أي منذ سبع ساعات تقريباً.

ـ ما الذي جاء بي إلى هنا؟

ـ بعد صلاة الفجر جاءنا رجل يسكن قريباً من المخزن وأخبرنا بأنه سمع صراخاً وأصواتاً لتحطيم البوابة في المخزن فجئنا مسرعين ووجدناك مغشياً عليك خلف البوابة.

قصصت عليه ماحدث لي البارحة.. ابتسم في هدوء وقال: إن هذا المخزن كان بيتاً لشاب مات في حادث سيارة انقلبت به قبل زفافه بأسبوع واحد، وقد مضى على هذا الحادث سنوات عدة هكذا سمعت من والدي لأني لم أره.

شكرته على ما أسداه إليّ من معروف، وقررت العودة إلى بلدي أبحث عن عمل قريب وأعود للمبيت في بيتي وبين أهلي، فلم أعد أكترث برؤية زملائي لي مادمت لم أفعل شيئاً أخجل منه.